﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ[1] لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾﴾

والسماء والأرض - كما نعلم - هما ظَرْفَا الحياة لنا كلنا ، وقد قال الحق سبحانه :

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾﴾ [غافر]

فإذا كان الله هو الذى خلق السماوات والأرض ؛ فهذا لَفْتٌ لنا على الإجمال ؛ لأنه لم يَقُلْ لنا ما قاله فى مواضع أخرى من القرآن الكريم بأنها من غير عَمَد[2] ؛ وليس فيها فُطور ، ولم يذكر هنا أنه خلق فى الأرض رواسى كى لا تميد[3] بنا الأرض ، ولم يذكر كيف قَدَّر فى الأرض أقواتها[4] ، واكتفى هنا بلمحة عن خَلْق السماوات والأرض .

---

(١) الفُلْك : السفينة ، للمذكر والمؤنث والواحد والجمع . [القاموس القويم ٢/٨٩] .

(٢) عَمَد : جمع عمود . وقال الفراء : فيه قولان :

- أحدهما : أنه خلقها مرفوعة بلا عمد ، ولا يحتاجون مع الرؤية إلى خبر .

- والقول الثانى : أنه خلقها بعمد لا ترون تلك العمد . [لسان العرب - مادة : عمد] .

(٣) ماد يميد : تحرك واهتز . ومادت الأرض : اضطربت وزلزلت . قال تعالى : ﴿وَأَلْقَىٰ فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. ﴿١٠﴾﴾ [لقمان] . لئلا تميل وتضطرب ، فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

(٤) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته . وجمعه أقوات . قال تعالى : ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. ﴿١٠﴾﴾ [فصلت] أى : أقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شىء حى إلى آخر الدهر . [القاموس القويم ٢/١٣٦] .

وحين يتكلم سبحانه هنا عن خَلْق السماوات والأرض يأتى بشىء لم يدَّعه أحد على كثرة المُدَّعين من الملاحدة ؛ وذلك لتكون ألزم فى الحجة للخَصْم ، وبذلك كشف لهم حقيقة عدم إيمانهم ؛ وجعلهم يرونَ أنهم كفروا نتيجة لَدد[1] غير خاضع لمنطق ؛ وهو كفر بلا أسباب .

وحين يحكم الله حُكْماً لا يوجد له معارض ولا منازع ؛ فهذا يعنى أن الحكم قد سَلِم له سبحانه . ولم يجترىء أحد من الكافرين على ما قاله الله ؛ وكأن الكافر منهم قد أدار الأمر فى رأسه ، وعلم أن أحداً لم يَدَّعِ لنفسه خَلْق السماوات والأرض ؛ ولا يجد مفراً من التسليم بأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

يُوضِّح لنا أن كلمة « الله » هنا ؛ لأنها مناطُ الصعوبة فى التكليف ؛ فالتكليف يقف أمام الشهوات ؛ وقد تغضبون من التكليف ؛ ولكنه يحميكم من بعضكم البعض ، ويكفل لكم الأمان والحياة الطيبة.

ولم يَأْتِ الحق سبحانه بكلمة « رب » هنا لأنها مناطُ العطاء الذى شاءه للبشر ، مؤمنهم وكافرهم .

وكلمة « الله » تعنى المعبود الذى يُنزِل الأوامر والنواهى ؛ وتعنى أن هناك مشقات ؛ ولذلك ذكر لهم أنه خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء .

---

(١) اللدد : الخصومة الشديدة . وألده يلده : خصمه . [لسان العرب ـ مادة : لدد] .

ونحن حين نسمع كلمة « السماء » نفهم أنها السماء المقابلة للأرض ؛ ولكن التحقيق يؤكد أن السماء هي كُلُّ ما علاك فاظلَّك .

والمطر كما نعلم إنما ينزل من الغَيْم والسحاب . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي[1] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا[2] فَتَرَى الْوَدْقَ[3] يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ .. (٤٣) ﴾ [النور]

وقد عرفنا بالعلم التجريبي أن الطائرة - على سبيل المثال - تطير من فوق السحاب ، وعلى ذلك فالمطر لا ينزل من السماء ؛ بل ينزل ممَّا يعلونا من غَيْم وسحاب .

أو : أنك حين تنسب النزول من السماء ؛ فهذا يوضح لنا أن كل أمورنا تأتي من أعلى ؛ ولذلك نجد الحديد الذي تحتضنه الجبال وينضج في داخلها ؛ يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ[4] شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

(١) زجه يزجه : دفعه بسرعة . وزجا الشيء يزجوه : ساقه برفق . [القاموس القويم ١/٢٨٤] .

(٢) قوله : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا .. (٤٣) ﴾ [النور] أي : متجمعاً فيه مطر كثير غزير . [القاموس القويم ١/٢٧٦] .

(٣) الودق : المطر كله شديده وهينه . [لسان العرب - مادة : ودق] .

(٤) قال ابن كثير في تفسيره : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] يعني : السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها ، و : ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] أي : في معايشهم كالسكة والفأس والقدوم والمنشار والأزميل والآلات التي يستعان بها في الحراثة والحياكة .. وما لا قوام للناس بدونه وغير ذلك . [تفسير ابن كثير ٤/٣١٥] .

وهكذا نجد أنه إما أن يكون قد نزل كعناصر مع المطر ؛ أو لأن الأمر بتكوينه قد نزل من السماء .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يتحدث الحق سبحانه عن خَلْق السماوات والأرض ؛ وكيف أنزل الماء من السماء :

﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

والثمرات هى نتاج ما تعطيه الأرض من نباتات قد تأكل بعضاً منها ؛ وقد لا تأكل البعض الآخر ؛ فنحن نأكل العنب مثلاً ، ولكنا لا نأكل فروع شجرة العنب ، وكذلك نأكل البرتقال ؛ ولكنا لا نأكل أوراق وفروع شجرة البرتقال .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

والتسخير معناه قَهْر الشىء ليكون فى خدمة شىء آخر . وتسخير الفُلْك قد يثير فى الذهن سؤالاً : كيف يُسخِّر الله الفلك ، والإنسان هو الذى يصنعها ؟

ولكن لماذا لا يسأل صاحب السؤال نفسه : ومن أين نأتى بالأخشاب التى نصنع منها الألواح التى نصنع منها الفُلْك ؟ ثم مَن الذى جعل الماء سائلاً ؛ لتطفو فوقه السفينة ؟ ومَن الذى سيَّر الرياح لتدفع السفينة ؟

كل ذلك من بديع صُنْع الله سبحانه .

وكلمة « الفلك » تأتى مرة ويُرَاد بهـا الشـىء الواحد ؛ وتأتى مرة ويُراد بها أشياء ؛ فهى تصلح أن تكون مفرداً أو جمعاً .

والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة]

وكذلك قال فى قصة نوح عليه السلام :

﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود]

وبعض العلمـاء يقولون : إذا عـاد ضمـيـر التأنيث عليـه ؛ تكون جَمْعاً ؛ وإذا عاد عليها بالتذكير تكون مفرداً .

ولكنِّى أقول : إن هذا الـقول غَيْـر غالب ؛ فسـبحانه قـد قال عن سفينة نوح وهى مفرد :

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا .. (١٤) ﴾ [القمر]

ولم يَقُل : « يجرى بأعيننا » ، وهكـذا لا يكون التأنيث دليلاً على الجمع .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

ونفهم بطبـيعة الحال أن النهـر عَذْب الماء ؛ والبحـر ماؤه مالح . وسبحـانه قد سخَّـر لنا كل شىء بأمره ، فهو الذى خلقَ النـهر عَذْب الماء ، وجعل له عُمْقاً يسمح في بعض الأحيان بمسير الفلك ؛ وأحياناً أخرى لا يسمح العمق بذلك .

وجعل البحر عميقَ القاع لِتمرُق فيه السفن ، وكل ذلك مُسخَّر بأمره ، وهو القائل سبحانه :

﴿إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣)﴾ [الشورى]

أى : أنه سبحانه قد يشاء أن تقف الرياحُ ساكنة ؛ فتركد السفن فى البحار والأنهار .

ومن عجائب إنباءات القرآن أن الحق سبحانه حينما تكلم عن الريح التى تُسيِّر الفلك والسفن ؛ قال الشكليون والسطحيون « لم نعد نُسيِّر السفن بالرياح بل نُسيِّرها بالطاقة » .

ونقول : فلنقرأ قوله الحق :

﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأنفال]

و « ريحكم » تعنى : قوتكم وطاقتكم ؛ فالمراد بالريح القوة المطلقة ؛ سواء جاءت من هواء ، أو من بخار ، أو من ماء .

وهذه الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - نزلت بعد أن أعلمنا الحق سبحانه بقصة السعداء من المؤمنين ؛ والأشقياء الكافرين ؛ فكانت تلك الآية بمثابة التكريم للمؤمنين الذين قدروا نعمة الله هذه ، فلمَّا علموا بها آمنوا به سبحانه .

وكرمتهم هذه الآية لصفاء فطرتهم التى لم تُضبَّب ، وتكريم للعقل الذى فكّر فى الكون ، ونظر فيه نظرةَ اعتبار وتدبُّر ليستنتج من ظواهر الكون أن هناك إلهاً خالقاً حكيماً .

وفى الآية تقريع للكافر الذى استقبل هذه النعم ، ولم يسمع من

أحد أنه خلقها له ؛ ولم يخلقها لنفسه ، ومع ذلك يكابر ويعاند ويكفر بربِّ هذه النعم .

وأول تلك النعم خَلْق السماوات والأرض ؛ ثم إذا نظرتَ لبقية النعم فستجدها قد جاءتْ بعد خَلْق السماوات والأرض ؛ وشيء من تلك النعم مُتَّصل بالسماء ؛ مثل السحاب ، وشيء متصل بالأرض مثل الثمرات التي تخرجها .

إذن : فالاستقامة الأسلوبية موجودة بين النعمة الأولى وبين النعمة الثانية .

ثم قال بعد ذلك :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

فما هي المناسبة التي جعلتْ هذا الأمر يأتي بعد هذين الأمرين ؟ لأن الفُلْك طريقها هو البحار ومسارها في الماء .

وقد قال الحق سبحانه أنه خلق السماوات والأرض . ومدلول الأرض ينصرف على اليابسة كما ينصرف على المائية ، ومن العجيب أن المائية على سطح الكرة الأرضية تساوي ثلاثة أمثال اليابسة ؛ ورُقْعة الماء بذلك تكون أوسعَ من رقعة التراب في الأرض .

وما دام الحق سبحانه قد قال إنه أخرج من الأرض ثمراً هي رِزْق لنا ، فلا بُدَّ من وجود علاقة ما بين ذلك وتلك ، فإذا كانت البحار تأخذ ثلاثة أرباع المساحة من الأرض ؛ فلا بُدَّ أن يكون فيها للإنسان شيء .

وقد شرح الحق سبحانه ذلك فى آيات أخرى ؛ وأوضح أنه سخَّر البحر لنأكل منه لحماً طرياً[1] ؛ وتلك مُقوِّمات حياة ، ونستخرج منه حلية نلبسها ؛ وذلك من تَرف الحياة .

ونرى الفلك مواخر[2] فيه لنبتغى من فضله سبحانه .

وبذلك تكون هناك خيرات أخرى غير السمك والحلى ؛ ولكنها جاءت بالإجمال لا بالتفصيل ؛ فربما لم يكُن الناس قادرين فى عصر نزول القرآن على أنْ يفهموا ويعرفوا كل ما فى البحار من خيرات ؛ ولا تزال الأبحاثُ العلمية تكشف لنا المزيدَ من خيرات البحار .

وحين نتأمل الآن خيرات البحار نتعجب من جمال المخلوقات التى فيه .

إذن : فقوله :

﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٦٦) ﴾ [الإسراء]

هو قَوْل إجمالى يُلخِّص وجود أشياء أخرى غير الأسماك وغير الزينة من اللؤلؤ والمرجان وغيرها ، ونحن حين نرى مخلوقات أعماق البحار نتعجَّب من ذلك الخَلْق أكثر مما نتعجَّب من الخَلْق الذى على اليابسة ، ومن خَلْق ما فى السماء .

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) ﴾ [فاطر] .

(٢) مَخرت السفينة مَخْراً ومُخوراً : شقت الماء بصدرها وسُمع لها صوت . [القاموس القويم ٢١٨/٢] .

وهكذا يكون قوله الحق :

﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٦٦)﴾ [الإسراء]

من آيات الإجمال التى تُفصِّلها آيات الكون ؛ فبعضٌ من الآيات القرآنية تُفسرها الآيات الكونية ، ذلك أن الحق سبحانه لو أوضح كل التفاصيل لَمَا صدَّق الناس - على عهد نزول القرآن - ذلك .

وعلى سبيل المثال حين تكلَّم سبحانه عن وسائل المواصلات ؛ قال :

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾

[النحل]

وقوله تعالى :

﴿وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨)﴾ [النحل]

أدخل كُلَّ ما اخترعنا نحن البشر من وسائل المواصلات ؛ حتى النقل بالأزرار كالفاكس وغير ذلك .

وحينما يتكلم سبحانه عن البحار ؛ إنما يُوضِّح لنا ما يُكمل الكلام عن الأرض :

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٣٢)﴾ [إبراهيم]

ولو فَطِن الناس لقالوا عن السفن « جمال البحار » ؛ ما داموا قد قالوا عن الجمل إنه « سفينة الصحراء » ؛ ولكنهم أخذوا بالمجهول لهم بالمعلوم لديهم .

وإياك أن تقول : أنا الذى صنعتُ الشراع ؛ وأنا الذى صنعتُ المركب من الألواح ، ذلك أنك صنعتَ كل ذلك بقواك المخلوقة لك من الله ، وبالفكر الموهوب لك من الله ؛ ومن المادة الموهوبة لك من الله ، فكلُّها أشياء جاءتْ بأمر من الله .

وهنا يقول سبحانه :

﴿وسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾﴾ [إبراهيم]

والنهر ماؤه عادة يكون عَذْباً ليروى الأشجار التى تُنتِج الثمار . والأشجار عادة تحتاج ماء عَذْباً .

وهكذا شاء الله أن يكون ماء البحار والمحيطات مخزناً ضخماً للمياه ؛ يحتل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية ، وهى مساحة شاسعة تتيح فُرْصة لعمليات البَخْر ؛ التى تُحوِّل الماء بواسطة الحرارة إلى بخار يصعد إلى أعلى ويصير سحاباً ؛ فيُسقط السحابُ الماءَ بعد أن تخلص أثناء البَخْر من الأملاح وصار ماء عَذْباً ؛ تروى منه الأشجار التى تحتاجه ، وتنتج لنا الثمار التى نحتاجها ، وكأن الأملاح التى توجد فى مياه البحار تكون لِحفْظها وصيانتها من العطب .

ونعلم أن معظم مياه الأنهار تكون من الأمطار ، وهكذا تكون دورة الماء فى الكون ؛ مياه فى البحر تسطع عليها الشمس لتُبخِّرها ؛ لتصير سحاباً ؛ ومن بعد ذلك تسقط مطراً يُغذى الأنهار ؛ ويصب الزائد مرة أخرى فى البحار .